المرتكزات النظريّة
والخلفية العلمية والمعرفية لبيداغوجيا المشروع

طالب دكتوراه: أحمد صيد
المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة–الجزائر.
saydos17@gmail.com

– **مُلخّــص:**

تُعدّ بيداغوجيا المشروع إحدى البيداغوجيات الحديثة الفعالة في التعليم والتعلم التي تساهم في بناء كفاءات المتعلم وتحقيقها، وتتأسس هذه البيداغوجيا على مرتكزات نظريّة وخلفية علمية ومعرفيّة هي؛ الفلسفة البراغماتية، والنظرية البنائية، والنظرية البنائية الاجتماعية، وسنفتتح هذا المقال بتمهيد نقدّم فيه نظرة مقتضبة عن نشأة بيداغوجيا المشروع ثم نحدّد مفهوم بيداغوجيا المشروع بالتفصيل، ثمّ نبيّن أهم المرتكزات النظرية للخلفية العلمية والمعرفية التي تأسست عليها هذه البيداغوجيا، لنختم بإبراز أهميتها ونجاعتها في الفعل التعليمي التعلمي.

– **الكلمات المفتاحية:** بيداغوجيا المشروع، الفلسفة البراغماتية، النظرية البنائية، النظرية البنائية الاجتماعية، التعليم، التعلّم، الكفاءات.

- **Abstract**:

The pedagogy of the project is considered one of the modern effective pedagogies in teaching and learning that contribute to building and achieving the competencies of the learner; Pragmatic philosophy, constructivism theory, and social constructivism theory, and we will open this article with a prologue in which we present a brief view of the emergence of the pedagogy of the project, then define the concept of project pedagogy in detail, then explain the most important theoretical foundations of the scientific and cognitive background upon which this pedagogy was based, to conclude by highlighting its importance and effectiveness in the educational act Learning.

- **Key words:** project pedagogy, pragmatic philosophy, constructivism theory, social constructivism theory, teaching, learning, competencies.

- **تمهـــيد:**

إن بيداغوجيا المشروع هي النموذج الذي يتبنى المشروعَ إستراتيجيّةً للتعلّم، قوامها مجموعة من المشاريع التي يسعى المتعلمون إلى إنجازها، بترجمة المشروع إلى أهداف، وإعداد الإجراءات والوسائل اللازمة التي تمكّن من تنفيذه، مع تخصيص حيّز زماني كافٍ لتحقيق ذلك، وتكمن أهمية هذه البيداغوجيا في العملية التعليمية التعلمية كونها تسمح للمعلم بتفعيل المتعلمين في إطار مشروع، يُفضي إلى مُنتج له قيمة خارج المدرسة (إعداد مجلّة – كتابة قصة – القيام برحلة –إعداد دليل سياحي – تهيئة عرض...) فيتخذ المتعلمون إعدادَ المشروع مناسبةً لاكتساب بعض الكفاءات والمعارف، كما أنها تحقق مفهوم التربية في إعداد الفرد للحياة عن طريق الحياة نفسه، فمن خلال تنفيذ المشروع وبذل النشاط فيه يكتسب المتعلمون الكثير من الكفاءات والمعلومات والمهارات المستهدفة، إضافة إلى تعلّم كيفية التعامل مع المشكلات التي تعترضهم.

وتاريخيّا تعود بيداغوجيا المشروع أساسا إلى أعمال الفيلسوف البيداغوجي الأمريكي جون ديوي (1859-1952) John Dewey الذي ركّز على الفعل المنظّم الموجّه إلى هدف محدّد، والذي نادى أيضا "بالتعلّم بالممارسة (النشط/العملي/الفعّال)"، وبالنّسبة إليه التفكير والعمل غير قابلين للانفصال، وفي المدرسة تولد وتنمو الأفكار المبدعة التي تتفوّق على التّلقّي السّلبي للمعرفة. وقد أولى ديوي اهتماما بالمدرسة التي تركّز على حاجات ومنافع الطّفل.

وقد طوّر **ويليام كلباتريك** William Kilpatrick (1871-1965م) هذه البيداغوجيا ووضع أبعادها، فهي تقوم على مبدأ ربط التعليم بالحياة التي يحياها المتعلم داخل المدرسة وخارجها، وهذا ما ذهب إليه جون ديوي في ما أراده من المدرسة؛ إذ رأى أنها يجب أن تكون مكانا يحيا فيه الطفل حياة اجتماعية حقيقية، فيتدربون على مواجهة مشكلات الحياة التي يتعرضون لها أو قد تجابههم خارج المدرسة[1].

إن طريقة المشروع تستند إلى مبادئ الفلسفات التربوية الحديثة التي تريد من المتعلم أن يكون إيجابيا في عملية التعلم، ويعتمد على نفسه في البحث عن المعرفة واكتشافها وتحصيلها من مصادرها المتنوعة ولا يكون جل اعتماده على المعلّم، فدوره لا يتعدى التوجيه والإرشاد، لذلك فإن هذه الطريقة تأتي استجابة لما تدعو إليه الفلسفة البراغماتية، والتربية التقدمية حول تدريب المتعلم على أساليب البحث عن المعرفة وإعطائه الفرصة للاعتماد على نفسه في تحصيل المعارف والخبرات والمهارات تأسيسا على افتراض أن ما يتوصل إليه المتعلم بنفسه يحتفظ به لمدة أطول، ويكون أكثر مقاومة للنسيان فضلا على أنه يكون أكثر قدرة على توظيفه في مواجهة ما يعترضه من مشكلات في حياته التي تتضمن الكثير من المشاريع، فالمتعلم في بيداغوجيا المشروع يبذل جهدا ذاتيا يتسم بالنشاط ، وبذلك فإن هذه البيداغوجيا تتماشى ومنهج النشاط لأنها تجعل المتعلمين يتعلمون عن طريق العمل، فيحيون في المدرسة حياة طبيعية مبنية على نشاطهم الذاتي.[2]

ومن جهة أخرى فقد شجعت حركة التربية الجديدة (مع **كوسين وفرييني** Cousin et Freinet) البيداغوجيا النّشطة التي تسمح بالتعلّم القائم على الحاجات الفطرية للطفل والتي تسمح له بالتّعلّم، وتعتبر الخبرات المحققة في حياة الطفل والمرتبطة بها أفضلَ عوامل التعلّم. وقد لُوحظ أن التّعلّمات النظريّة تحقّق نتائج أقلّ، لأنّها لا تعتمد على الأعمال التّطبيقية، كما اقترح **فرييني** Freinet تخصيص مجال للنّشاطات النّهائية (إنجاز صحيفة، مراسلة، تّعلّم تّعاوني مدرسي)، والتي تتيح للطفل استخدام ما تعلّمه في حياته.[3]

1- مفهوم بيداغوجيا المشروع:

ظل المشروع يمثل طريقة مشهورة من الطرائق الحديثة القائمة أساسا على التنسيق بين النشاط الذاتي للمتعلم ومتطلبات الوسط الذي يعيش فيه هذا الأخير، ولا يزال المشروع يحتل مكانة رئيسة في مناهج التربية حاليا، حيث يعبر عن بيداغوجية حقيقية قائمة بذاتها، بكل ما يحمله هذا المفهوم من متغيرات ومعان، ومن أجل الوصول إلى المفهوم الفعلي لبيداغوجيا المشروع واستكناه حقيقتها وجب علينا بدءا الوقوف بالتفصيل الدقيق على اللفظتين اللتين تكونان هذا المصطلح: **بيداغوجيا/ المشروع.**

1-1- مفهوم البيداغوجيا:

أ- معنى البيداغوجيا لغة:

البيداغوجيا لغة لفظ مركب من Pais وهو طفل، و Agoge ويعني قيادة أو توجيه ، فالبيداغوجيا إذن تعني قيادة الأطفال وتوجيههم.[4]

وبناء على هذا، كان البيداغوجي le pédagogue هو الشخص المكلف بمراقبة الأطفال ومرافقتهم في خروجهم للتكوين أو النزهة، والأخذ بيدهم ومصاحبتهم. فقد كان العبيد يقومون بهذه المهمة في العهد اليوناني القديم.[5]

ب-معنى البيداغوجيا اصطلاحا:

- يقصد بها ذلك الأسلوب أو النظام الذي يتبع في تربية الفرد وتكوينه وتعليمه ، أي تعني "**فنّ التعليم وتقنياته**".
- كما تستهدف البيداغوجيا بالمفهوم المعاصر " **دراسة كيفية تعليم وتكوين الفرد، والبحث في الأسس الفلسفة للتربية وتحديد غاياتها وتوفير السائل التربوية والطرائق الفعالة لتحقيقها معتمدة على معطيات علم النفس التربوي والاجتماعي والارتقائي، وهذا على خلاف ما تنتهجه البيداغوجيا التقليدية.**"
- وفي هذا السياق يرى "**فولكي**" Foulquié أن البيداغوجيا " **هي الأسلوب الذي يتبع في تكوين الفرد، فهي التي تتضمن العلم بخصوصيات الفرد والمعرفة بالتقنيات التربوية والمهارة في استعمالها.**"[6]
- ومن التعريفات العامة لهذا المصطلح أنه "**فن التربية**".
- كما تعرف على أنها مجموع الوسائل والطرائق المستخدمة من طرف الفاعلين في التربية.
- **وتطبيقا يمكن تعريفها** على أنها "تجميع لجملة من الأساليب التقنية التي تهدف إلى وضع معايير لمراقبة إجراءات عملية نقل المعرفة، والبعض يعرفها بأنها مصطلح عام يحدد من ناحية علم وفن التدريس، ومن جهة أخرى تستخدم طريقة التدريس، وتستعمل في معناها الضيق لتحديد التقنيات البيداغوجية."

- **وفي هذا السياق اعتبرها إميل دوركايم E.Durkheim نظرية تطبيقية للتربية تستمد مفاهيمها من علم النفس وعلم الاجتماع، كما اعتبرها العالم التربوي السوفياتي ماكرنكو A.Makarenko** العلم الأكثر جدلية، الذي يرمي إلى هدف عملي. وذهب روني أبير **R.Hubert** إلى أنها ليست علما ولا تقنية ولا فلسفة ولافنا ؛ بل هي هذا كله.[7]

ويمكن تصنيف البيداغوجيا إلى:

-1- **بيداغوجيا عامة** : وهي لفظ عام ينطبق على ماله ارتباط بالعلاقة القائمة بين مدرس وتلميذ بغرض تعليم أو تربية الطفل.

-2- **بيداغوجيا خاصة:** وهي التي تصف طريقة التعلم حسب المادة المُعلَّمة أو المدرسة.[8]

1-2- مفهوم المشروع:

أ - **لغة:** جاء في لسان العرب: شَرَعَ الوَارِدُ يَشْرَعُ شَرْعاً وشُرُوعاً تناول الماء بفيه، والشَّرِيعَةُ والشِّرَاعُ والمَشْرَعة المَواضِعُ التي يُنْحَدَرُ إلى الماء منها، قال اللّيث: وبها سُمّيَ ما شرَع الله للعباد شريعة في الصّوم والصّلاة والحجّ والنّكاح وغيره، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُـــمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ﴾[9]. وقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ **شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا**﴾[10] قيل في تفسيره: **الشِّرْعَة** الدّين، **والمِنْهَاج** الطّريق. وقيل الشّرعة والمنهاج جميعا: **الطّريقُ**، والطّريق ههنا الدّينُ.[11]

وقال محمّد بن يزيد: شِرعَةً معناها ابتداء الطّريق والمنهاج المستقيم، قال ابن عبّاس: شِرْعَةً ومنهاجاً سبيلاً وسنّةً،... وقال القتيبي: على شريعة: على مِثَالٍ ومَذْهَبٍ، ومنه يُقالُ: شَرَعَ فُلانٌ في كَذا وكَذا إذا أَخَذَ فيه.[12]

أمّا في اللّغة الفرنسية فإنّ المعنى الأوّل لكلمة المشروع (projet) الذي ورد في الفرنسية القديمة من الأصل pourget أو project وفي اللاتينية projicio أو projicere ويدلّ "على الذي ينطلق إلى الأمام أو يندفع إلى الأمام"[13].

وهذا المعنى يبتعد عن المعنى الوارد في معجم le Grand Robert والذي يشير إلى :" صورة وضع ما لحالة يتعين علينا تحقيقها" أي ما يجب علينا القيام به حقيقة. هذا التعريف تم تحديده تاريخيا في القرن الخامس عشر ميلادي بمعنى: " معالجة أو فهم مشكلة ما". والمعنى الآخر للكلمة (مشروع) نجده في القرن السابع عشر ميلادي، والذي يدلّ على" العمل التحضيري الأولي لشيء ما".

أمّا بالنسبة لبوتيني (2005) Boutinet، فالمعنى الحديث عنده لكلمة " مشروع" يعني: "تصميم الهندسة المعمارية الجديد في عصر النهضة الإيطالية الذي يرد في سياق مفاهيم التقدم والتطور العلمي والتقني".

وأمّا بالنسبة لتشامبي و إيتِفي (2005) Champy & Etévé فمن شأن المشروع أن يكون " ترتيب نموذج لتقييم النشاط المادي حرصا على تحقيق الهدف، والوسائل المناسبة لذلك ".

وأمّا بالنّسبة لأردوانو وبيرغر (1989) Berger & Ardoino فإنّه: يعني أوّلا النيّة الفلسفية أو السّياسية، وهي بوجه عام هدف غير محدّد –بالضرورة– لقِيم ما بحثا عن تحقيق الذّات، إنها (النّيّة) ليست سوى ترجمة إستراتيجية وعمليّة وقياسيّة للهدف، كما يجب أن يكون المشروع مُتصوّرا بأكثر دقّة ممكنة، تشمل الجانب الماديّ والتخطيط اللازم لتحقيقه.[14]

أ/- اصطلاحا:

نقلت فيفيان دولاندشير Viviane Delansheére عن جان أردوانو Jhon Ardoino عن نوط Not تعريفه التالي للمشروع: "بأنه المسافة التي تفصل الحالة الراهنة للأشياء عن التصور الذي يقدمه الإنسان عنها، إنه سلو استباقي".[15]

ويحاول **أردوانو** Ardoino أن يوضح هذا التعريف بالتمثيل للمشروع التربوي بأنه " كيفية نتصور بها التربية على أنها مقاصد وليست برامج على الإطلاق، تلك المقاصد التي تشكل في مجملها منظومة القيم".[16]

و**المشروع** "عبارة عن مدخلات منسّقة من قبل مجموعة من المشاركين، لفترة زمنية محددة، يتم خلالها استعمال كمية محددة من الموارد تسمح بالوصول إلى الأهداف التي تسعى إلى تحسين ظروف مجتمع أو واقع معيّن عند تحويلها– أي الموارد–إلى نشاطات من خلال طريقة معينة".[17]

ويعرفه **كلباتريك** Klipatrik بأنّه: " الفعاليّة القصدية التي تجري وتتحقق في محيط اجتماعي". وأهمّ ما يميز هذا التعريف هو أنه تعرف شامل حيث أن كل عمل بالنسبة إليه، يعتبر مشروعا ويتخذ هذه الصفة إذا كان قصديا متصلا بالحياة، ومهما كان ذلك العمل يدويا أو فكريّا، فالشرط الوحيد هو أن يكون مرتبطا بالحياة وينشد غاية محددّة.[18]

ويعرفه **عبد الكريم غريب** بقوله: إن المشروع هو الحياة، هو الوضع قيد الاستعمال لقدرات بشرية نوعية، وهو كذلك تعبير عن حيز عملي ممكن بالنسبة لمحركي هذا المشروع والفاعلين فيه.[19]

بعد تجلية مفهومي البيداغوجيا والمشروع كل على حدة، نستطيع الآن تقديم مفهوم واضح ودقيق لمصطح بيداغوجيا المشروع.

- **مفهوم بيداغوجيا المشروع:**

تُعرّف بيداغوجيا المشروع بأنها "النموذج الذي يتبنى المشروعَ إستراتيجيّةً للتعلّم، قوامها مجموعة من المشاريع التي يسعى المتعلمون إلى إنجازها وفق الخطوات الآتية:

- ترجمة المشروع إلى أهداف.
- إعداد الإجراءات والوسائل التي تمكن من تنفيذ المشروع.
- توقع الغلاف الزمني الذي يستغرقه إنجاز المشروع."[20]

كما يطلق مصطلح بيداغوجيا المشروع على الممارسة التي تسمح للمدرس بتفعيل المتعلمين في إطار مشروع، يُفضي إلى مُنتج له قيمة خارج المدرسة (القيام برحلة – إعداد جريدة – كتابة قصة – إعداد دليل سياحي – تهيئة عرض ...) فيتخذ المتعلمون إعدادَ المشروع مناسبةً لاكتساب بعض الكفايات والمعارف.[21]

2- المرتكزات النظرية والخلفية العلمية والمعرفية لبيداغوجيا المشروع:

ترتكز بيداغوجيا المشروع في خلفيتها العلمية والمعرفية إلى الفلسفة البراغماتية للفيلسوف والمربي الأمريكي "جون ديوي"(1859-1952م) John Dewey، والمدرسة البنائية لعالم النفس السويسري "جون بياجي"(1896-1980م) Jean Piajet، والمدرسة البنائية الاجتماعية لعالم النفس الروسي ليف فيجوتسكي (1896-1934م) Lev Vygotsky. وسنتكلم بالتفصيل عن هذه المرتكزات العلمية النظرية التي تأسست عليها بيداغوجيا المشروع في ما يلي:

2-1- الفلسفة البراغماتية(المذهب النفعي):

تعود الأصول النظرية لبيداغوجيا الكفاءات وحل المشكلات، وبيداغوجيا المشروع، إلى المذهب النفعي الذي يتزعمه المربي الأمريكي "**جون ديوي**"(**1859-1952**) **John Dewey** مبتكر أسلوب حل المشكلات وطريقة المشروع في التعليم، وقيمة المعرفة حسب هذا المذهب تتحدد بمقدار ما تحقق من فائدة ونفع، وهي من مبادئ بيداغوجيا الكفاءات، وبيداغوجيا المشروع.[22]

ولقد مثلت هذه الفلسفة إطارا نظريا ألهم الكثير من البيداغوجيين وبالتالي ظهور مجموعة من المقاربات البيداغوجية كبيداغوجيا الأهداف، وبيداغوجيا الكفاءات وبيداغوجيا المشروع، وبيداغوجيا حل المشكلات، وفيها ظهر التماهي الكامل بين عالم المنفعة – الشغل ومجاله المقاولة- وعالم المعرفة ومجاله المدرسة.[23]

وهي فلسفة قدمت نفسها بديلا لكل الفلسفات التأملية الميتافيزيقية، لأن قيمة كل شيء بالنسبة لها، يستمدها من خلال ما ينجم عنها من نفعية. إن الحقيقة بالنسبة إليها تساوي النفع وليس هناك أي معيار آخر لإدراكها غير النفع، إن "**الحقيقي**" في أوجز عبارة كما يقول **وليام جيمس:** ((ليس سوى النافع الموافق للمطلوب في سبيل تفكيرنا تماما كما أن الصواب ليس سوى الموافق النافع المطلوب في سبيل مسلكنا".

وهكذا كان لابد لفلسفة نفعية عملية وتجريبية مثل هذه أن تلقى القبول الممكن داخل مجتمع لا يؤمن إلا بالمردودية، ويسعى هو الآخر إلى إنقاذ نظامه التعليمي المهدد بالانهيار، وتثبيته على ركائز واضحة ومحددة بدقة حتى يصبح هو بدوره تعليما عمليا ونفعيا.[24]

2-2- المدرسة البنائية:

تعود أصول المدرسة البنائية الاجتماعية إلى عالم النفس السويسري **جون بياجي Jean Piajet**.

إن المعرفة حسب هذا التصور هي نتيجة لعملية بناء مستمر لا يعرف التوقف. عملية يتداخل فيها المحسوس بالمجرد ويتبادلان التأثير خارج منطق هيمنة أحدهما على الآخر. إن اعتماد الانطلاق من الحسي الى المجرد ،أو القول بالنزول من المجرد الى المحسوس، يعتبر كل منهما عملية المعرفة كسيرورة خطية ذات اتجاه أحادي تُعطى فيها الأولوية للمنطق (العقل) أو النشاط الحسي، ولا سبيل لتقاطعهما. إن تجاوز هذه السمة الخطية لكلا المنهجيين هو ما يميز المنهج البنائي الذي يقدم عملية المعرفة كعملية بناء واكتشاف لا سبيل فيها لتفضيل العقل على الملاحظة

الحسية ولا لتفضيل هذه الأخيرة على العقل إن الذات (الباحث أو المتعلم) لا تمارس النشاط المعرفي لمجرد أنها تسير وفق خطة مقننة، بل لأنها تبني المعرفة كجواب على مشكلة محددة أو وضعية إشكالية تستدعي حلا معينا ، وليست هناك سيرورة منهجية نمطية توصل الى هذا الجواب، بل لابد أن تمر علنية البناء من سيرورة دينامية أساسها الشعور والوعي بمشكلة ما (نظرية او واقعية) وفحواها القيام بنشاط يعمل عليه العقل بنماذجه وبنياته المختلفة، إلى جانب الفعل الحسي والحركي، للتأثير على الأشياء والموضوعات والوصول بالتالي إلى تجريد ما حدث من تغيرات عليها في صورة معارف محددة، هكذا فأن يكتسب المتعلم معارف وأفكار ومهارات عملية من خلال سيرورة بنائية ، معناه أن تنضم الوضعية التعليمية–التعلمية بشكل يسمح لهذا المتعلم بممارسة التفكير كفعالية نظرية وعملية في الوقت نفسه، وتجعله على اتصال مستمر بالأشياء والموضوعات المختلفة ،وتبيح له إمكانية التفكير فيها واستخلاص المعارف والقوانين والقواعد المتحكمة فيها، وفق سيرورة منهجية تعكس إبداعيته وعطاءه الشخصي.[25]

إن هذا التصور ينهل من الإبستيمولوجيا التكوينية **لجان بياجي JEAN Piajet** وتصوره للمعرفة والتي لا تتكونن لا كما كان يعتقد السلوكيون طبقا للقانون–مثير استجابة–، بل تتكون انطلاقا من التفاعل الدائم بين مكونات الفرد الداخلية ومحيطه الإدراكي، وذلك عبر أوليتي الاستيعاب والتلاؤم أو المواءمة وما يصاحب ذلك من توتر وسعي دؤوب لإعادة التوازن.[26]

وحسب **بياجي** فإن الذات في مواجهتها للموضوعات الخارجية تقوم باستيعاب خصائص هذه الموضوعات لتكون بذلك ما يسمى بالخطاطات الذهنيةles schèmes mentaux وهذه الموضوعات الخارجية ليست معطيات ثابتة، بل هي دائمة الحركة والتغير والتجديد، لذلك نجدها تفرض خصائصها على الذات لترغمها على ملاءمة الخطاطات الذهنية المكونة سابقا، حتى تجعلها تتحدد وفقا للتغيرات الجديدة التي حدثت على عناصر الوسط. إنه السيرورة الدائمة بين عمليتي الاستيعاب والتلاؤم هي التي تخلق التوازن بين الذات والموضوع وتؤدي بالتالي إلى تحقيق التكيف adaptation.[27] والبنيات المعرفي كما يذكر **بياجي** Piajet هي بنيات دينامية لا تتوقف على النمو والتطور، بل تستمر في نموها بالموازاة مع تطور الفرد وارتقاء نموه من مرحلة إلى أخرى، وخلال كل مرحلة عمرية تتأسس بنيات جديدة تحتوي وتتجاوز البنيات السابقة لها وهكذا دواليك، فالتعلم والمعرفة لا يمثلان أنشطة عبثية ، بل إنهما عمليتان تستهدفان بلوغ حالة توازن فقدت عند الفرد جراء أحد أمرين:

- إما تغيرات ظهرت في محيط الفرد وأنشأت لديه الحاجة إلى المعرفة.
- أو تغيرات طرأت على مستوى تفكيره استوجبت أو استدعت الفهم والتفسير.

وبحصول الفرد على مخرج أو بحدوث الفهم يتم التوازن.[28]

ويقدم **بياجي** عدة تصورات عن التعلم نجملها فيما يأتي:

1- التعلّم حالة خاصة من حالات التطور.
2- التطور عملية زيادة الوعي بالعلاقة بين من يَعرف وما يُعرف.
3- الإدراك الحسي موجه من قبل عمليات عقلية ذاتها ليست وليدة أشكال سابقة له.
4- التعلّم عملية خلق عضوية وليست عملية تراكم آلية (تتم دون تفكير).
5- كل مفهوم مكتسب ينطوي على استدلال ما.
6- الأخطاء ليست في الغالب نتيجة عدم الانتباه بل نتيجة لشكل أولي من التفكير الاستدلالي.
7- التعلم القائم على الفهم يتطلب تنظيما ذاتيا نشطا.
8- التعلم القائم على المعنى يتم عندما يزيل المتعلم تناقضا أو تعارضا بين التنبؤات والنتائج.
9- التعلّم القائم على المعنى يحدث عن طريق نفي (إلغاء) مستويات فهم سابقة غير كاملة.
10- جميع أشكال النفي(الإلغاء) يبنيها الفرد ذاته، وليست نتاجا آليا للتغذية الراجعة من البيئة [29].

وقد قامت النظرية البنائية على جملة من الأسس قدمتها جامعة "فاندربلت" Vanderblit University وهي كالآتي:

1- تُبنى على التعلّم وليس التّعليم.
2- تشجع استقلالية مبادرة المتعلمين وتقبلها.
3- تجعل المتعلمين مبدعين.
4- تشجع البحث والاستقصاء لدى المتعلمين.
5- تؤكد على الدور الناقد للخبرة في التعليم.
6- تؤكد على حب الاستطلاع.
7- تأخذ النموذج العقلي للمتعلم في الحسبان.

8- تؤكد على الأداء والفهم عند تقييم التعلم.

9- تعكل على استخدام المصطلحات المعرفية مثل: التنبؤ-الإبداع – التحليل.

10-تأخذ في الاعتبار كيف يتعلم المتعلمون.

11-ترتكز على التعلم التعاوني.

12-تضع المتعلمين في مواقف حقيقية.

13-تؤكد على المحتوى الذي يحدث التعلّم.

14-تأخذ في الاعتبار معتقدات المتعلمين واتجاهاتهم.

15-تزود المتعلمين بالفرص المناسبة لبناء المعرفة الجديدة والفهم من الخبرات.[30]

لقد كان لمثل هذه التصورات الثورية في عهدها والتي انبنت على نتائج العلم البيولوجي من جهة والملاحظات الإمبريقية المتأنية لبياجي بنفسه في متابعته لعملية النمو كما عاينها لدى بنتيه، أثر كبير في مجال التربية وتبيين كيفية حدوث التعلم، وهو تأثير سوف لن تتخلص منه كل البيداغوجيات الفعالة، كبيداغوجيا الكفاءات وبيداغوجيا المشروع اللتان تتأسسان على مثل هذا التصور الإبستيمولوجي البنيوي للمعرفة والعلم.

2-3- المدرسة البنائية الاجتماعية:

تعود أصول المدرسة البنائية الاجتماعية إلى عالم النفس الروسي **ليف فيجوتسكي Lev Vygotsky (1896-1934)** وقد تميزت بالتركيز على الجانب الاجتماعي في عملية التعلم وبناء المعرفة.[31]

وتسمى هذه النظرية أحيانا النظرية الثقافية الاجتماعية، لتأكيدها على دور الثقافة والمجتمع في التعلم. وقد تبلورت هذه النظرية في العقدين الأخيرين من القرن العشرين الميلادي، متأثرة بكتابات عالم النفس المعرفي الروسي **ليف فيجوتسكي** الذي كان يرى أن تفكير الأطفال ولغتهم يبدآن بوصفهما وظيفتين منفصلتين، لكن تصبحان مترابطتين في سنوات ما قبل المدرسة، عندما يبدأ الأطفال في استخدام اللغة وسيلة للتفكير، وشيئا فشيئا يبدأ تعلم الطفل يتأثر باللغة، خاصة المعارف المرتبطة بالثقافة التي يصعب أن تُكتسب من خلال التعامل المباشر مع البيئة، فيكتسب الطفل معارفه الثقافية من خلال التخاطب مع الآخرين، ويتوسع في ذلك من خلال التفكير والحديث النفسي الداخلي.[32]

" ويشمل العالمُ الاجتماعي للمتعلم الأفرادَ الذين يؤثرون بصورة مباشرة على المتعلم، ومنهم المعلم والأصدقاء والأقران والمدير وجميع الأفراد الذين يتشارك أو يتعامل معهم المتعلم من خلال أنشطته المختلفة، أي أننا نأخذ هنا في الاعتبار البيئة المجتمعية للمتعلم، ونهتم بالتركيز على التعلم التعاوني، ذلك أن تعلم الأفراد في مجموعات يفوق بالطبع تعلم كلٍّ منهم على حدة، وأن تعاون الأفراد يجعل تعلم كل منهم أفضل وأقوى، حيث يشكل التفاعل بينهم علاقة تبادلية لولبية.[33]

وقد أضفت هذه النظرية الصبغة الاجتماعية على التعلم وبناء المعرفة، فهما لا يتمان إلا في سياق اجتماعي، وربما هذا ما أغفلته النظرية السلوكية والنظرية البنائية، **فبياجي** مثلا كان يرى أن الطفل الصغير عالم يستكشف البيئة من حوله بنفسه، إلا أنه بهذه النظرة –بتركيزه على عملية البناء الذاتي للمعرفة– قد أغفل حقيقة مهمة، وهي أن هذا الاستكشاف في الحقيقة لا يقوم به الطفل منعزلا عن بيئته الاجتماعية المحيطة به، ولا يمكن أن يتم هذا البناء دون تأثير أو تأثر بالمجتمع.

وهذا ما تداركته النظرية البنائية الاجتماعية بتأكيدها على أن التعلم لا يتم إلا في وسط اجتماعي.

" فالمتعلم يعيش داخل مجموعة من البشر قريبين منه ويتفاعل ويتواصل معهم، وكل ما يتعلمه يتأثر بشكل أو بآخر بهم. وأغلب صور التعلم والاتصال بين البشر ما كانت لتتم لولا وجود اللغة؟، فاللغة وسيلة اجتماعية، والتعلم إنما هو عملية اجتماعية، والعلوم والمعارف التي تكونت على مر العصور إنما هي منتجات اجتماعية، بمعنى أن العلماء أنتجوها وساهموا فيها من خلال صور متعددة من التفاعلات الاجتماعية والحوارات والمناقشات والمناظرات والنقد والأنشطة الجماعية، فما يقدمه المربون والمعلمون في كل مجتمع إنما هو مقرر اجتماعيا."[34]

لقد مثلت هذه الرؤى والأدلة الواقعية مرتكزات أرست عليها النظرية البنائية الاجتماعية أسسها، مستفيدة مما أغفلته نظريات التعلم السابقة في نظرتها الضيقة للتعلم على أنه يتم بجهد ذاتي من قبل المتعلم في سياق فردي، فاستدركت ذلك ورأت بأن التعلم لايتم إلا في سياق اجتماعي، وفي تفاعل اجتماعي وبتأثر وتأثير بين المجتمع والفرد المتعلم داخل هذه البيئة الاجتماعية.

ولنأخذ هنا مقارنة بسيطة بين نظرتي **جون بياجي** –رائد المدرسة البنائية– و**ليف فيجوتسكي** – رائد المدرسة البنائية الاجتماعية – **للتعلم والنمو:**

- يرى بياجي أن الطفل **عالم صغير يقوم بالاستكشاف وبناء المعرفة في ذهنه بنفسه منفردا اعتمادا على نمو حيوي**، بينما يرى فيجوتسكي **أن النمو الذهني يعتمد بدرجة كبيرة على الناس الذين يحيطون بالطفل.** فما يكتسبه الطفل من المعارف والاتجاهات والقيم ينمو من خلال التفاعل مع الآخرين، بمعنى أن الثقافة التي يعيش فيها الطفل هي التي تشكل نموه الذهني، فهي التي تقرر ماذا يتعلم والطريقة التي يتعلم بها. فالمتعلم يستخدم قدراته العقلية للتفاعل والتعلم من الآخرين، لكن هذا التفاعل يؤثر على العمليات العقلية وينميها.
- يرى **بياجي** أن **النمو يحدث بشكل أساس من الداخل متجها إلى الخارج**، فالقدرات تنضج ثم يقوم الطفل بتطبيقها على المهمة التي تواجهه في الحياة، بينما ينظر **فيجوتسكي** إلى النمو نظرة معاكسة تماما لذلك، **فالنمو العقلي بالنسبة إليه يبدأ من الخارج إلى الداخل**، حيث تنشأ جذور العمليات الداخلية الذاتية لدى الفرد من تفاعله مع الآخرين. فالأطفال يشاهدون التفاعل بين الناس من حولهم، ويتفاعلون مع الناس، ويستفيدون من هذه التفاعلات لزيادة نموهم. فنمو الفرد حسبه يعتمد على الأثر الاجتماعي والبيئي بقدر ما يعتمد على النضج.
- كما عارض **فيجوتسكي** رأي **بياجي** فيما يتعلق **بالمراحل النمائية**، حيث يرى أن النمو يتأثر بتفاعل المتعلم مع من حوله، أكثر من تأثره بالمرحلة التي هو فيها، بل إن البيئة المحيطة بالمتعلم تؤثر كثيرا في تحديد هذه المراحل، ويرى أنه يمكن أن يوجد طفلان في المرحلة النمائية ذاتها ، لكن أحدهما يتفاعل مع زملائه أو مع من هو أكبر منه فيؤدي أشياء لا يمكن أن يؤديها الطفل الآخر الذي لم يتعرض لتفاعل اجتماعي مماثل.[35]

3-أهمية بيداغوجيا المشروع:

لاشك أن بيداغوجيا بالمشروع تعني توريط الفاعلين لأنّه من المهم التوقف عند التعلم الجماعي(العمل على التمثلات) ويُسر اتواصل الداخلي والخارجي الذي ينميه المشروع، وهي من الأمور التي يمكن وضعها كأهداف تسمح بالتعلم وتكوين الفاعلين وتنمية التواصل"[36].

وتحقق إستراتيجية التعلم بالمشاريع عددا من الأهداف التي تتلاقى مع طبيعة العلم ومنها :عمل الفرق، وشرط الإجماع لاعتماد المعرفة، ودور المناقشة فهي تطوير المعرفة، وغيرها من الأهداف، لذلك فإن إستراتيجية التعليم بالمشروع تعد من الاستراتيجيات المساندة للإستراتيجيات الرئيسة في تدريس العلوم كالتعلم المبني على الاستقصاء ودورة التعلم .[37]

تعتبر بيداغوجيا المشروع مهمة باكتساب الكفاية المعقدة لأنها تعوّد المتعلمين على أن يعتبروا الإجراءات التي تعلموها بالمدرسة أدوات لتحقيق مَرامٍ يدركونها ويحتفظون بها في كيانهم، ذلك لأن المهام التي يضطلعون بها في إ طار مشروع تكون في مجملها معقدة، وتفضي إلى إنجازات خارج الإطار المدرسي ولا علاقة لها بالمواد التعلمية، بل لها علاقة بالمعنى الذي يعطونه للوضعيات.

وهكذا تعوّد بيداغوجيا المشروع المتعلمين على الوضعيات المستجدة بمواردهم الخاصة. كما تعودهم على أن يبنوا لأنفسهم المهام التي يضطلعون بتنفيذها. ومن هنا انبثق مفهوم مشروع التلميذ الشخصي الذي يجسد الرغبة في مساعدة التلميذ على التعلم الذاتي. إذ إنّ مشروع المتعلّم ينطوي على فكرة مفادها أن المتعلم شخص تكمن كرامته في قدرته باعتبار طموحاته الماضية وتحديد قدرته في الحاضر وآفاقه المستقبلية...

إن الفكرة الأساس في هذا النوع من المشاريع هي دفع المتعلم لأن يتحمل المسؤولية ويعي أهمية التفكير في مستقبله باعتباره مشروعا شخصيا، وذلك بتحريضه على إضفاء دلالة شخصية على المدرسة والتعلم المدرسي. وهكذا يتحول مشروع التلميذ إلى استثمار تدريجي يخول له إمكانية اختيار نوعية الدراسية التي سيتابعها. ويغدو دور الراشدين –آباء كانوا أم مدرسين أم موجهين تربويين – هو مساعدة التلميذ على اتخاذ قراراته لا اتخاذ القرارات بدله، لهذا يمكن القول إن المشروع الشخصي للتلميذ يقوم على أساس احترام الفرد وتمكينه من الوسائل التي تتيح له قدرا من المساواة مع الآخرين، وتجعله قادرا على القيام باختياراته وتوجيه نفسه، منطلقا من المعلومات المتوفرة لديه، كما تجعله قادرا على تطوير أفكاره وتصحيح أخطائه والانتقال إلى وضعية المبادرة والمشروع.[38]

وختاما فإن بيداغوجيا المشروع تنهل أسسها من روافد علمية ومعرفية مهمة وهي المتعلقة بالفلسفة النفعية، والنظريتين البنائية والاجتماعية، التي تكلمنا عن أهم مرتكزاتها في هذا الموضوع، وهذا ما يجعلها تعدّ إحدى أهم البيداغوجيات التعليمية التعلّمية الحديثة التي تستدعي الجمع بين الجانبين النظري والتطبيقي في بناء التعلمات وتحقيق الكفاءات، وتتطلب مهارات عليا من التفكير والتنظيم، والتنسيق بين النشاط الذاتي للمتعلم والنشاط الجماعي للمتعلمين، وتنطلق من حاجاتهم في الوسط الذي يعيشون فيه، كما تتيح هذه البيداغوجيا الجمع بين عدة إستراتيجيات

وطرائق نشطة في التعلم كالتعلم التعاوني والتفكير الإبداعي، وتعد أيضا فرصة حقيقية لتطبيق بيداغوجيا حلّ المشكلات كونها تنطلق من مشكلة تتبناها جماعة تعلمية وتسعى لحلها وفق خطوات إنجاز المشروع، وفي خضم إنجاز المشروع يطبق المتعلم بيداغوجيا الإدماج وذلك بدمج مجموعة من المكتسبات والخبرات العلمية والمعرفية واكتسابه أخرى جديدة ويؤلف بينها مما يعزز فرص الجودة والإبداع في المنتج النهائي للمشروع، لذلك يحتل المشروع مكانة رئيسة في مناهج التربية حاليا، حيث يعبر عن بيداغوجيا حقيقية قائمة بذاتها، بكل ما يحمله هذا المفهوم من متغيّراتٍ ومعانٍ.

الهوامش:

[1]– يُنظر: محسن علي عطية، المناهج الحديثة وطرائق التدريس، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمن، الأردن، 2009، ص416.

[2]– المرجع نفسه، ص416، ص417.

[3]– Garnier Claudine,Donner dusens aux apprentissages: la pédagogie de projet, mémoire professionnel PE2, IUFM DE BOURGOGNE, Dijon, France, Mai 2005, p4.

[4]– عبد الله قلي، فضيلة حناش، التربية العامة، المعهد الوطني لتكوين مستخدمي التربية وتحسين مستواهم، الحرش، الجزائر،2009، ص207.

[5]– نورالدين أحمد قايد وحكيمة سبيعي، التعليمية وعلاقتها بالأداء البيداغوجي والتربية، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، العدد الثامن، 2008، ص34.

[6]– عبد الله قلي، فضيلة حناش، المرجع السابق، ص207.

[7]– نورالدين أحمد قايد وحكيمة سبيعي، المرجع السابق 35.

[8]– المرجع نفسه، ص 34، ص35.

[9]– الآية 18من سورة الجاثية.

[10]–الآية48 من سورة المائدة.

[11]– ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف مجلد 7، حرف ع، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص175

[12]–المصدر نفسه، ص176.

[13]– يُنظر: Jean–Christophe Vilatte, Le projet? Séminaires–rencontres des médiateurs en Midi–Pyrénées, SéminaireRodez du 2–3 Février 2006.France, p4.

[14]– Catherine Reverdy, DES PROJETS POUR MIEUX APPRENDRE? Dossier d'actualité veille et analyses, N82, Février 2013, l'institut français de l'éducation, Lyon, France, , p2.

[15]– ميلود التوري، أسس التكوين التربوي، مطابع الرباط نت، المملكة المغربية، 2016، ص140.

[16]– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[17]– خافيير شونك، كرم أبي يزبك، دليل الدورة التدريبية حول: تحديد وتطوير مفاهيم المشروع وتحليل الحاجات، لبنان 2009، ص3.

[18]– يُنظر: محمد شرقي، مقاربات بيداغوجية، من تفكير التعلم إلى تعلم التفكير، دراسة سوسيوبيداغوجية، دار إفريقيا الشرق، المملكة المغربية، 2010، ص92.

[19]– عبد الكريم غريب، بيداغوجيا المشروع، منشورات عالم التربية، المملكة المغربية، 2008، ص39.

[20]– ميلود التوري، المرجع السّابق، ص142.

[21]– يُنظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[22] – ينظر أحمد صيد، تأثير بناء الاختبارات اللغوية وفق المقاربة بالكفاءات على إجابات المتعلمين، مستوى السنة الأولى من التعليم المتوسط في الجزائر أنموذجا، منشور ضمن سلسلة دراسات إستراتيجية ومستقبلية، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربيةــ القاهرة، مصر، مارس 2014، ص110.

[23] – محمد شرقي، المرجع السابق، ص37، ص38.

[24] – محمد شرقي، المرجع السابق، ص19.

[25] – عبد الكريم غريب، وآخرون، في طرق وتقنيات التعليم، من أسس المعرفة إلى أساليب تدريسها، سلسلة علوم التربية، العدد السابع، الشركة المغربية للطباعة والنشر، الرباط، المملكة المغربية، 1992، ص170.

[26] – يُنظر: محمد شرقي، المرجع السابق، ص40.

[27] –ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[28] – ينظر: المرجع نفسه، ص41.

[29]– ينظر: علي حسين حجاج، وعطية محمود هنا، نظريات التعلّم، دراسة مقارنة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، أكتوبر 1983، ص301.

[30]– يُنظر: أحمد النجدي، وعلي راشد، ومنى عبد الهادي سعودي، اتجاهات حديثة في تعليم العلوم في ضوء المعايير العالمية وتنمية التفكير والنظرية البنائية، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط1، 2006، ص366، ص367.

[31]– يُنظر: راشد بن حسين عبد الكريم، النظرية البنائية الاجتماعية وتطبيقاتها التدريسية في المنهج، مركز بحوث كلية التربية، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 2011، ص14.

[32]– المرجع نفسه، ص17، ص18.

[33]– كمال عبد الحميد زيتون، حسن حسين زيتون، التعلم والتدريس من منظور المدرسة البنائية، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 2003، ص 52.

[34]– راشد بن حسين عبد الكريم، المرجع السابق، ص18، ص19.

[35]– للاستزادة في هذا الشأن ينظر راشد بن حسين عبد الكريم، المرجع السابق، ص19، ص20.

[36]– حسن اللحية، مشروع المؤسسة –الأسس النظرية– منشورات المعارف، الرباط، المملكة المغربية، 2005، ص65.

[37]– زياد سعيد بركات، المرجع السابق، ص3.

[38]– ميلود التوري، المرجع السابق، ص144، ص145.